يوم الكرة الأرضي

استيقظ محمود باكراً كعادته.. تلك عادة اكتسبها منذ عشر سنوات خلت، عندما وقع في حب زميلته في الجامعة سعاد. كان يستيقظ باكراً ليستمتع باستعادة أحداثه معها في اليوم السابق قبل أن ينهض من فراشه ليتوضأ ويصلي الصبح قبل أن يذر قرن الشمس.

ومع أن حب سعاد أصبح ذكريات لأنها، بعد أن أنهت الجامعة، آثرت عليه رجلاً في الخامة والثلاثين يمتلك قصراً وسيارة فخمة ومصنعاً للزجاج... مع ذلك.. لازمته عادة الاستيقاظ المبكر، واستعاض عن استرجاع ذكرياته مع سعاد بالاستماع إلى المذياع يقلّبه على المحطات المختلفة.

وفي يوم الكرة الأرضية في الثاني والعشرين من نيسان.. استيقظ كعادته، ومدّ يده إلى مفتاح المذياع وهو ممدد في الفراش فأداره، فانبعث من إذاعة عمّان صوت أنثوي خفيض ناعم يلفه الهدوء.. لم يعتد أن يسمع هذا الصوت الخفيض، فَصَوْتُ هذه المغنية – التي استمع لها طويلاً – صوت فيه ارتفاع في الطبقة،

فما له هذا اليوم كأنه مرّ على طريق مصفاة للصوت مبللّة بالماء! بعد أن استمع إلى الأغنية نقل مؤشر المذياع إلى محطة لندن فانبعث صوت رجل، ولكنه كان خفيضاً كذلك.. بدا الأمر غريباً، فنقل المؤشر على كل المحطات الشغّالة، وكلما وقف المؤشر على محطّة.. انبعث إلى أذنيه صوت أنثوي ناعم خفيض أو صوت ذكري هادئ خفيض.. ما الذي حدث؟ أتفاهم رؤساء الدول في العالم عن طريق الأقمار الصناعية على أن يصدروا تعليمات إلى محطات البث لكي يخفض المغنون والمغنيات والمتحدّثون والمتحدثات من طبقة أصواتهم، مساهمة في خدمة البيئة وتخفيف تلوثها من جراء نوع من الملوّثات هو الضجيج؟ ربّما.. وربما يكون هذا ليوم واحدٍ هو هذه المناسبة، وربما يكون قراراً مستمراً إلى الأبد، لكي يخففوا من الضجيج الذي يرهق النفوس والأعصاب ويزيد في الأضرار البيئية الواقعة على الإنسان! ولكن.. أين أنا من هذا؟ لماذا لم أسمع بهذا الاتفاق؟ قد يكون عقد بين رؤساء دول العالم بعد الساعة الحادية عشرة، موعد ذهابه إلى فراشه. ولكن هذا تفسير يقوم على الظن قررأن يبكر في زيارة جاره التاجر ليشتري منه الجريدة، فيعرف الخبر اليقين من التاجر أو من الجريدة.. ازدادت دهشته عندما سلّم على جاره التاجر فرّد عليه بصوت هادئ خفيض كأصوات المتحدثين والمتحدثات في الإذاعات، وأراد أن يتأكد من أن التاجر التزم الهدوء وخفض

الصوت، فسأله، بعد أن نظر في الصفحة الأولى من الجريدة ولم يجد خبراً عن هذا الانقلاب الصوتي:

– ماذا حدث؟ كل المغنيين والمغنيات والمتحدثين في الإذاعات والمتحدّثات قد خفضوا من طبقة أصواتهم، وبصورة ملحوظة، حتى أنت تتكلم معي بصوت خفيض!!

نظر إليه التاجر نظرة استغراب ثم قال:

– ماذا حدث؟ وانكشف فمه عن ابتسامة غير بريئة..

أدرك أن جاره التاجر لم يفهم عليه بل بدا عليه الاستغراب، فقرّر أن يغيّر موضوع الحديث، قال له وهو يشير إلى الجريدة:

– ما رأيك بكتّاب الزوايا؟

أجاب وهو يحدّق في وجه محمود:

– كل منهم يعتبر الزاوية كزوجته!!..

– صدقت.. وأرفق ذلك بابتسامة، ثم بإشارة من يده، وعاد مسرعاً إلى شقته لكي يقرأ الخبر في الصفحات الداخلية للجريدة!

«لم يفهم عليّ جاري التاجر، ولكن الجريدة هي التي ستفهم عليّ وتمدّني بالخبر اليقين».

وتصفّح الجريدة ولكنه لم يعثر على خبر عن هذا الانقلاب الصوتي ثم عاد يتفحّصها لعله يجد الخبر منزوياً في ركن من الجريدة لأنه قد يكن وصل الجرائد بعد أن أصبحت جاهزة للطبع، فلم يجد رئيس التحرير للخبر مكاناً إلا ركناً صغيراً، لكنه فشل في

العثور على شيء! وداهمته موجة من العطاس.. فذكرته بنوبات الدوار أخذت تعاوده وأن عليه أن يراجع الطبيب.. إنه يزور طبيباً خاصاً تقع عيادته على سقف السيل يعدّه صديقاً له وإن كان الطبيب لا يحسّ بهذه الصداقة، كل ما في الأمر أنه يعامله بلطف كسائر المرضى.. «نعم، تكلفني زيارته خمسة دنانير من مرتبي الضئيل ولكنها تهون عليّ ولا تهون عليّ كرامتي أمام أطباء الحكومة الذين يعاملون – أو معظمهم – المرضى بخشونة، لأنهم يقبضون رواتبهم من الخزينة لا من جيوب المرضى».

عندما وقف على محطة «الباص» كان حوله حشد من الناس ينتظرون «الباص» وكانوا كلهم يتكلمون بصوت خفيض! وهمّ أن يسأل أحدهم ولكنه عدل عن ذلك لأنه خشي ألاّ يفهم عليه كما لم يفهم عليه جاره التاجر، ويستغرب سؤاله كما استغربه جاره التاجر. فلجأ إلى التعليل الشخصي: «إذن، الأمر ليس قراراً من رؤساء دول العالم، وإلاّ.. فكيف يلتزم به عامّة الناس من غير أن يخرج عليه أحد منهم حتى ولو لم يكن موظفاً رسمياً.. هو انقلاب بيلوجي في طبيعة الإنسان أراده اللّه تعالى...».

وتضاعف استغرابه عندما أقبل «الباص» لا يكاد يسمع لمحركاته صوت! «غريب! لنفرض أنه حدث انقلاب بيلوجي في طبيعة الإنسان، فما بال الجماد؟؟ أهو تغير في نظام الفلك كله؟ هل يمكن أن يتغير نظام الكرة الرضية وحده ثم لا يصطدم بنظام

الكون الثالث على حالته الأولى؟ لو كان ذلك.. فليس له إلا تفسير واحد هو أن القيامة قد قربت ساعتها..».

ظل محمود يقلّب الأمر على جميع الوجوه المحتملة حتى وقف «الباص» على سقف السيل.. فكان ما سمعه هناك قد أكد لديه هذا الانقلاب في نظام الكرة الأرضية، الباعة ينادون على بضاعتهم بصوت خفيض، والمشترون يساومون بصوت خفيض، والسيارات ترسل زوامير ناعمة كأنها تَمُرّ قبل انبعاثها، على اسطوانة مشبعة ببخار الماء، ومحركاته لا يكاد يسمع لها صوت كأن مفاصل المحرك قد غطيت بالقطن الناعم.. ولكنه لم يسأل أحداً خشية أن يستغرب سؤاله كمل استغرب جاره التاجر..

في عيادة الطبيب استقبلته الممرضة/ السكرتيرة، ردت عليه تحيته بابتسامة وبإشارة من يدها يعني أن تفضل اجلس، ثم قالت مطمئنة له:

– سيخرج المريض بعد عشر دقائق على الأكثر.

لم يستغرب صوتها وهو ينبعث ناعماً خفيضاً، فهذ حال الدنيا في هذا اليوم، يوم الكرة الأرضية – ولكنه سيعرف السّر في نشرة أخبار العاشرة أو الثانية عشرة أو الثانية أو في أي نشرة من أي محطة إذاعة.. فليصبر، وتذكر قول طرفة بن العبد:

ستبدي لك الأيامُ ما كنتَ جاهلاً

ويأتيك بالأنباء من لم تُزوّدِ

بعد وقت لم يستطع تقديره.. خرج المريض فنهضت الممرضة وفتحت باب الطبيب وبسطت يدها أمام صدرها داعية ، محموداً – للدخول

– مِمَ تشكو؟

– من دوار يعاودني بين آن وآخر.

– منذ متى؟

– منذ شهر؟

وبعد بضعة أسئلة أخرى توجهت أنظار الطبي إلى منطقة الرأس..

فحص الطبيب أنفه وحلقه وأذنية، ثم قال له وهو يبتسم:

– بسيطة.. أنت مصاب باحتقان في الأنف على أثر رشحة لم تَشْفَ منها تماماً، وامتدّ الاحتقان إلى الأذن الداخلية فضغط على سائلها وأضيف إلى ذلك أن الصماخ (صمغ الأذن) يغطي طبلتي الأذنين..

– إذن، الأمر معقّد!

– لا، سأكتب له دواء للاحتقان، وآخر للدوار، سأغسل أذنيك، وستزول كل الأعراض خلال يومين، إن شاء اللّه.

– شكراً يا دكتور.

انهمك الطبيب بغسل الأذن اليمنى وهو صامت وعندما أزال منها الصماخ حشاها بالقطن، ثم استدار إلى الثانية.. ولم يكلم – محموداً – إلا بعد أن حشا أذنه الثانية بلقطن... قال له مبتسماً:

– الآن تستطيع أن تعود إلى بيتك مطمئناً.. خذ الدواء في

مواعيده واسترح في الفراش يومين، وأَقِلَّ من الحركة، ولا تنزع القطن من أذنيك إلا بعد يومين! طبعاً يمكنك أن تغيرّه إذا شئت في أي وقت.. المهم ألاّ تفتح أذنيك للهواء والغبار خلال يومين.

ودّع محمود الطبيب، ولم يَنْسَ أن يقول له:

– أرجو أن تسمح لي أن أتصل بك عند أي طارئ.

– اعتبرني في خدمتك.

دخل محمود صيدلية فاشترى الدواء واشترى لفافة قطن.. وعندما وصل موقف «الباص» على سقف السيل.. خطر بباله أن يغيّر القطن الذي حشاه في أذنيه الطبيب بقطن جديد.. صدم عندما نزع القطن من كلتا أذنيه!! عاد كلّ شيء إلى ما كان عليه بالأمس لم تطق الكرة الأرضية الهدوء لأكثر من بضع ساعات: أصوات الباعة تجرح صماخ الأذن، زوامير السيارات ترهق الأعصاب، محركاتها تئن وتصرخ، حتى هؤلاء الذين يقفون على المحطة.. أصواتهم تصمّ الآذان.. ومضت لحظات وهو لا يجد لهذا الذي جرى تفسيراً، فقد عطلت الدهشة المضادة عقله عن التفكير وشلّت جسده. وفجأة – بعد أن زايلته الدهشة – أدرك أن الدنيا لم «تتغير» وإنما التغير جاء من قِبَلِ أذنيه اللتين كان يسدّ سمعهما الصماخ!!.